

## معوقات في مواجهة النظرية الأدبية الإسلامية

### الحلقة الخامسة

د/ علي يوسف اليعقوبي

### الرومانسية

الرومانسية تيار أدبي، ظهر في بداية الأمر في أوروبا، يهتم بالنفس الإنسانية، وما تزخر به من عواطف ومشاعر وأخيلة، وهو مذهب يتصف بالسهولة في التفكير، وفي التعبير عن النفس، بعيداً عن التأنيق وقيود العقل، ويُعتبر ظهور هذا المذهب انعكاساً سلبياً لما كانت تمثله الكلاسيكية من تشدد، وما تفرضه من قيود عقلية صارمة<sup>(١)</sup>، ولعل العامل المشترك الأعظم بين جميع المذاهب الفلسفية والاجتماعية والأدبية الأوروبية، هو بروز تلك التحولات والمتغيرات الفكرية الحادة والجذرية، إثر الاضطهاد الديني، والمعاناة التي اكتوت بها المجتمعات الأوروبية، خلال وبعد الحروب التي شهدتها أوروبا. لقد شهدت أوروبا أحداثاً جساماً، كان من أهمها: الثورة الفرنسية، والحروب الطاحنة بين دولها، والصراع على المستعمرات، وحروب نابليون بونابرت، وما أحرزه من انتصارات شغلت الدنيا، وأفعمت نفوس الشباب بالأحلام الكبار<sup>(٢)</sup>، وقد شملت هذه التحولات معظم شرائح المجتمع الأوروبي؛ وقد انعكس ذلك كله في صورة قلق وحيرة واضطراب، وانتشر فيهم ما يُسمى بـ (مرض العصر)، وهو إحساس حاد بالكآبة، والإحباط، وقد تفاوتت آثار هذا الشعور بين بلد أوروبي، وآخر<sup>(٣)</sup>.

وقد كان من الطبيعي في مثل هذه الأجواء المتورمة بالتحولات والمتغيرات، أن يبرز تيارٌ جديد، في محاولة للنهوض بالإنسان الأوروبي، ولترميم ما أفسدته الكلاسيكية، فدعا إلى رفض ونقض كل ما خلفته الكلاسيكية من مبادئ وقيم وتصورات، حيث برز هذا المذهب (الرومانسي)، الذي دعا إلى رفض النزعة العقلية، ومجابهتها ومقاومتها بكل ما أوتي من أدوات، فافتتن بالطبيعة، وعشيقها عشقاً يكاد يصل إلى درجة العبادة<sup>(٤)</sup>، وعلى الرغم من ثورة الرومانسيين على القواعد، والأصول، التي فرضها الكلاسيكيون على الأدب، والنقد؛ إلا أنهم أوجدوا للأدباء، والنقاد، ما يشبه القواعد، ودعوهم لأن يضعوا في حسابهم أربعة أمور هي: مرض العصر، واللون المحلي، والخلق الشعري، والنغمة الخطابية<sup>(٥)</sup>، وفي المقابل فقد وضع بعض الرومانسيين المعتدلين طائفة من القواعد لتقويم العمل الأدبي، فقالوا: "إن لكل عصر طبيعته،

(١) ينظر/ د. وليد قصاب - المذاهب الأدبية الغربية.. رؤية فكرية، وفنية - ص ٣٧، ٤٠، ٤٢.

(٢) ينظر/ د. عبد الرحمن رأفت الباشا - نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد - ص ٣٥.

(٣) ينظر/ د. عبد الباسط بدر - مذاهب الأدب الغربي "رؤية إسلامية" - ص ٤٣-٤٤.

ينظر أيضاً/ د/ مانع بن حماد الجهني - الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة - ط ٣، ٢، ص ٨٦٩.

(٤) ينظر/ محمد قطب - مذاهب فكرية معاصرة - ص ٤٨٩.

(٥) د/ عبد الرحمن رأفت الباشا - نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد - ص ٣٧.

وينظر أيضاً/ د. محمد مندور - الأدب ومذاهبه - ص ٦٧، ٦٨.

وخصائصه، ولذا فلا يجوز أن نتخذ من عصر واحد قواعد ومبادئ، نفرضها على الأدب مهما كان هذا العصر. وإذا أردنا أن نضع للأدب أصولاً، وقواعد عامة، فلا بد أن تكون مرنة، صالحة لكل زمان، ومكان".<sup>(٦)</sup>

وفي الحقيقة أن الرومانسية كانت ثورة حادة على كل ما هو قديم، لدرجة الانسلاخ، والبراءة من كل التراث السابق، فكان شعارهم: "مألنا ولآداب الإغريق، واللاتين، وأصول فنهم، وأمامنا تاريخنا القومي، وثقافتنا القومية، بل وروحنا القومية تطلب إلينا أن نصدّر عنها"<sup>(٧)</sup>، وفي الواقع أن الرومانسية لم تكن ثورة على أصول الكلاسيكية، وقواعدها فحسب، بل صارت تعبيراً عن حالة الرومانسي النفسية، أكثر من كونها مذهباً أدبياً"<sup>(٨)</sup>.

كذلك ارتمى الرومانسي في أحضان الرؤى والأحلام، والحب والخمر، والتعلق بالأحزان، والتلذذ بالألم بغير سبب، سوى الشعور الحاد بالغربة، والهروب من الواقع النفسي المحطم، الذي حبس نفسه داخل سياجه المحكم، بمحض إرادته، حيث تمثل هذه الظاهرة، محوراً رئيساً من محاور الرومانسية البائسة، المتجسدة في عدم القدرة على التعايش، والسلام النفسي مع الذات أولاً، ومع المجتمع من حوله ثانياً، فكانت النتيجة الحتمية، والمأساة الحقيقية؛ من حيث التشرّد الدائم، والعزلة، واليأس، والسخط، واليهام في عالم من الشعر المثالي الحالم، كما لم تهتم المدرسة الرومانسية بأحوال الناس السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية وما يعانونه من مشاكل بوجه عام<sup>(٩)</sup>.

وهاهو إبراهيم ناجي يرتمي في أحضان، الغربة، والألم، والشكوى، حيث لم يعد يشعر بالأمن والراحة، حتى بين أهله، وفي مجتمعه، حيث يقول:

يَا قَاسِيَّ الْبُعْدِ كَيْفَ تَبْتَعِدُ      إِنِّي غَرِيبُ الدَّارِ مُنْفَرِدُ  
إِنْ خَانَنِي الْيَوْمَ فَيَكُ قَلْتُ غَدًا      وَأَيْنَ مَنِّي وَمِنْ لِقَاكَ غَدُ

إلى أن يقول:

أَرْنُو إِلَى النَّاسِ فِي جُمُوعِهِمْ      أَشَقَّتْهُمْ الْحَادِثَاتُ أَمْ سَاعَدُوا  
تَفَرَّقُوا أَمْ هُمْ بِهَا احْتَشَدُوا      وَغَوَّروا هَابِطِينَ أَمْ صَاعَدُوا  
إِنِّي غَرِيبٌ تَعَالِ يَا سَكْنِي      فَلَيْسَ لِي فِي زَحَامِهِمْ أَحَدُ<sup>(١٠)</sup>

(٦) د/عبد الرحمن رأفت الباشا - نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد - ص ٣٦.

(٧) د/محمد مندور - الأدب ومذاهبه - ص ٦٠.

(٨) د/ فايز ترحيني - الدراما ومذاهب الأدب - ط ١، ص ١٧٧.

(٩) ينظر/ د. الطاهر محمد علي - الملامح العامة لنظرية الأدب - ط ١، ص ١٠٤-١٠٥.

ينظر أيضاً/ د. وليد قصاب - الحداثة في الشعر العربي المعاصر. - ص ٣٧-٣٨.

(١٠) إبراهيم ناجي - ديوان - ط ١٩٧٣م، دار العودة - بيروت - ص ٣٢٨، ٣٢٩.

وَنَحْنُ وَإِنْ كُنَّا نَرَى أَنَّ خَيْرَ وَسِيلَةٍ لِإِدْرَاكِ مَعْنَى الرُّومَانِسِيَّةِ، هُوَ الاطِّلاَعُ عَلَى إِبْدَاعِهِمْ، وَمَا أَنْتَجَتْهُ قِرَائَتُهُمْ، لِنَتَّبِعَنَّ تِلْكَ الْمَعَانِي، وَالْمُضَامِينِ، وَالنَّعْمَاتِ، الَّتِي فَاضَتْ بِالْأَلَامِ، وَالشَّكْوَى، وَالْخَوْفِ، وَالْتِّشَاؤِ، وَنَأْخُذُ مِثَالاً عَلَى ذَلِكَ قَصِيدَةُ الشَّاعِرِ الْفَرَنْسِيِّ "الْفَرِيدِ دِي مُوسِيه"، وَهِيَ تَجْرِي عَلَى هَيْئَةٍ حَوَارٍ بَيْنَ الشَّاعِرِ، وَرَبَّةِ الشَّعْرِ، حَوْلَ تَجَرِبَةٍ حَقِيقِيَّةٍ عَاشَهَا الشَّاعِرُ، وَقَاسَى مِنْ آلامِهَا الْمُرَّةَ فِي حُبِّ عَاثِرٍ لِلْكَاتِبَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ "جُورْجِ صَانْد"، الَّتِي سَافَرَ مَعَهَا إِلَى إِيطَالِيَا، حَيْثُ سَقَطَ مَرِيضًا، وَعَادَهُ طَبِيبٌ إِيطَالِيٌّ، فَوَقَعَتْ "جُورْجِ صَانْد" فِي حُبِّهِ، وَهَجَرَتْ الشَّاعِرَ الْمَرِيضَ، وَخِلَالَ تِلْكَ الْمِحْنَةِ أَتَتْهُ رَبَّةُ الشَّعْرِ، وَجَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا حُورٌ طَوِيلٌ:

**رَبَّةُ الشَّعْرِ:** مَا بِكَ يَا شَاعِرِي؟ مَا هَذَا الْأَلَمُ الْخَفِيُّ الَّذِي أَقْصَاكَ عَنِّي؟  
**الشَّاعِرُ:** كَانَ أَلَمًا مُبْتَدَلًا مِمَّا يُصِيبُ الْجَمِيعَ...

**رَبَّةُ الشَّعْرِ:** مَا فِي الْأَلَمِ مِنْ مُبْتَدَلٍ إِلَّا أَلَمُ نَفْسٍ مُبْتَدَلَةٍ  
**الشَّاعِرُ:** مَا أَحْبَبْتُ غَيْرَكَ أَيَّتُهَا الْوَحِيدَةُ الْمُقَدَّسَةُ!! تَبَارَكَتْ آيَاتُ اللَّهِ أَنْ عُدْتُ إِلَيْكَ، إِلَى مَعْبَدِ أَفْكَارِي.. رَبِّي! رَبِّي الْمُقَدَّسَةُ.. لَنْ نَعُودَ فَتُغْنِي سَوِيًّا.

**رَبَّةُ الشَّعْرِ:** لَقَدْ مَرَّتْ بِنَفْسِكَ ذِكْرِيَّاتٌ مُشْرِقَةٌ، فَلِمَ لَا تَعُودُ إِلَيْهَا؟  
**الشَّاعِرُ:** لَا، لَا أُرِيدُ أَنْ أَبْتَسِمَ لِغَيْرِ أَلَامِي.. أَذْكَرُ رَبَّتِي أَنَّنَا فِي لَيْلَةٍ حَزِينَةٍ مِنْ لَيَالِي الْخَرِيفِ...، وَقَدْ أَخَذَتْ هَمَّسَاتُ الرِّيحِ بِحَفِيفِهَا الْمُطَرَّدِ الْمَمْلِ، تَرْتَجُّ فِي عَقْلِهَا الْمُضْنِي، حَالِكِ الْأَيَّامِ، وَقَفَتْ بِالنَّافِذَةِ أَنْتَظِرُ عَوْدَتَهَا.. وَإِذَا بِضَيْقٍ شَدِيدٍ يَأْخُذُ بِالنَّفْسِ، وَيُنْذِرُنِي بِخِيَانَتِهَا، وَكَانَ الطَّرِيقُ قَاتِمًا، مُوحِشًا، إِلَّا مِنْ بَعْضِ أَشْبَاحٍ مَرَّتْ وَبِيدَهَا مَشَاعِلُ، وَالرِّيحُ تَهَبُ مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ، بِبَابِي الْمُنْفَرَجِ قَلِيلًا.. كَانَ الْمَوْتُ أَحَبَّ لِي مِنْ يَوْمٍ لَا أَقْضِيهِ إِلَى جَوَارِهَا <sup>(١١)</sup>.

وَتَمْضِي الْقَصِيدَةُ فِي هَذَا الْحَوَارِ الطَّوِيلِ، وَالَّذِي تَلَمَّحَ مِنْ خِلَالِهِ بَعْضَ مَلَامِحِ الرُّومَانِسِيَّةِ الْبَائِسَةِ، السَّالِبَةِ الَّتِي عَبَّرَ عَنْهَا الشَّاعِرُ مِنْ خِلَالِ الْكَثِيرِ مِنَ الْإِسْقَاطَاتِ النَّفْسِيَّةِ لِمُعْجَمِهِ الشَّعْرِيِّ، مِنْ مِثْلِ: ( الْأَلَمُ الْخَفِيُّ - أَلَمًا مُبْتَدَلًا - أَلَمُ نَفْسٍ مُبْتَدَلَةٍ - لَنْ نَعُودَ فَتُغْنِي سَوِيًّا - لَا أُرِيدُ أَنْ أَبْتَسِمَ لِغَيْرِ أَلَامِي - لَيْلَةٍ حَزِينَةٍ - لَيَالِي الْخَرِيفِ - هَمَّسَاتُ الرِّيحِ الْمُطَرَّدِ الْمَمْلِ - حَالِكِ الْأَيَّامِ - ضَيْقٌ شَدِيدٌ يَأْخُذُ بِالنَّفْسِ - يَنْذِرُنِي بِخِيَانَتِهَا - كَانَ الطَّرِيقُ قَاتِمًا، مُوحِشًا - أَشْبَاحٌ - الرِّيحُ تَهَبُ بِبَابِي الْمُنْفَرَجِ قَلِيلًا - الْمَوْتُ أَحَبُّ لِي.. ) كُلُّ ذَلِكَ "فَضْلًا عَنْ مُحَاوَلَةِ تَبْرِيرِ الرِّذَائِلِ، وَأَنْوَاعِ الضَّعْفِ الْأَخْلَاقِيِّ، الَّتِي تَرْفَعُ شَبَابَ الْأَدَبِ إِلَى الْمُغَامِرَاتِ الْمُسَيِّفَةِ، وَمُحَاوَلَةِ تَبْرِيرِهَا، بِإِلْصَاقِهَا بِرَبَّةِ الشَّعْرِ، وَآلِهَةِ الْفُنُونِ" <sup>(١٢)</sup>.

كَمَا فَصَّلَ هَذَا الْمَذْهَبُ بَيْنَ الْأَدَبِ وَبَيْنِ الْأَخْلَاقِ، دَاعِيًا وَبِكُلِّ جَرَأَةٍ وَانْدِرْفَاعٍ إِلَى الْانْطِلَاقِ فِي الْفِكْرِ إِلَى أَبْعَدِ مَدًى، فَلِلشَّاعِرِ "الْحَقُّ الْمَطْلُوقُ" فِي أَنْ يَرْفُضَ مَا يَشَاءُ، وَأَنْ يَقْبَلَ مَا يَشَاءُ، وَلَا يَخْضَعُ لِقَوَانِينِ أَخْلَاقِيَّةٍ وَدِينِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ وَفَنِّيَّةٍ تَأْتِي مِنَ الْخَارِجِ، فَالْإِنْسَانُ فِي الرُّومَانْتِيكِيَّةِ سَيِّدٌ

(١١) نقلًا عن: د/محمد مندور - الأدب ومذاهبه - ص ٧١ - ٧٥.

(١٢) د/محمد مندور - الأدب ومذاهبه - ص ٨١.

نفسه، ذاتي إلى أبعد الحدود... ما يقبله اليوم يرفضه غداً، والعكس صحيح، يرى الكون والوجود من خلال نظارتين مصبوغتين بلون عاطفته الخاصة " (١٣).

كما عكست أشعار الرومانسيين من أمثال: لورانس وبودلير وبول فرلين... وغيرهم... حالة من الخلاعة والتثقل، والإباحية والمجون، والفساد الأخلاقي، ومن عجب أن نرى مجموعة من الشعراء أمثال: أحمد زكي أبي شادي، وعلي محمود طه، وإبراهيم المصري، يمجّدون أولئك الشعراء، ويعجبون بفكرهم وينظرون للحياة أيما إعجاب، فهاهو علي محمود طه يمجّد عهر وخمر فرلين، وضياعه وصعلكته، بين حانات المدينة ومواخير الفساد... لقد كانت حياة (فرلين) فاجعة مُحزنة، فمن الحان إلى السجن... إلى الماخور... إلى الهيام في الطرقات... إلى ملاجئ البر... هذا هو الشاعر الخالد الذي كان أرخم صوت غنائي، صدح به الشعر الفرنسي... إن في حياة هذا المتشرّد الكبير ضرراً من العبث، وألواناً من الألم، ولكنّه العبث الذي تستقيم به حياة الفنان البوهيمي، والذي يتيح للأدب في كلّ جيل فنوناً شتى من الإجادة والإبداع " (١٤).

كما أعجب علي محمود طه - أيضاً - بشعراء العهر والدعارة، وأشاد بشاعريتهم التي ولدت في أحضان حانات الخمر، ومواخير الخنا والفسوق، أمثال: بودلير وفرانسوا فيون... الذين يجاهرون بفساد فطرهم من خلال عشقهم للبغايا، وتصويرهم للجنس المتبدّل المكشوف، فيما يُعرف (بالحب البودليري) الذي شوّه صورة المرأة وتخلّيلها أفعى غادرة<sup>(١٥)</sup>، ثم نجد بعد ذلك: ممّن حملوا راية النقد في بلادنا، وممن نصبوا أنفسهم حُمّة للرذيلة والفكر المنحرف، يدافعون عن هذا (الأدب المريض) الفاجر الملتهب أمثال: سلامة موسى ودريّني خشبة<sup>(١٦)</sup>.

#### ❖ قراءة في الرومانسية:

إذا كان الإسلام لا يُقر الكلاسيكية، لما بينهما من تباين كبير، فإن التناقض بينه وبين الرومانسية أكبر، وأعمق، وفيما يلي رصد لأهم ما بينهما من فوارق:

**أولاً:** نلّ من المساوي التي طبعت الرومانسية، وأساءت إليها: ما نادى به بعض زعمائهم من تمرّد على كلّ القيم الخلقية والدينية والاجتماعية، فهاهو "دافيد هربرت لورانس" يعلن عن قناعاته الخلقية الشاذة، "فقد كان ثائراً على جميع النظم الاجتماعية القائمة، كما كان يُنادي بتعرية العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة، وإظهار الغريزة الجنسية عارية سافرة فاضحة بلا تحرج ولا حياءٍ" (١٧)، وأيضاً الشاعر الفرنسي "بول فرلين" الذي لم يعرف من الحياة إلا العهر والخمر

(١٣) د/ عبد الحميد جيدة - الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر - ص ١٧٥ - ١٧٦.

(١٤) علي محمود طه - أرواح شاردة - (ديوان)، ص ٨.

(١٥) د/ سعد دعبيس - حوار مع قضايا الشعر المعاصر - ص ٩٩.

(١٦) د/ سعد دعبيس - تيار رفض المجتمع في الشعر العربي الحديث في مصر، ص ٥٢.

(١٧) د/ محمد زكي العشماوي - دراسات في النقد الأدبي المعاصر - ص ٣١ - ٣٢.

وَالضِّيَاعَ وَالتَّشْرُدَ دَاخِلَ مَوَاحِيرِ الْخَنَا وَحَانَاتِ اللَّيْلِ<sup>(١٨)</sup>، و"بودير" شاعرُ الإلحادِ والدَّعارةِ، وَالْجَنَسِ الْمَكْشُوفِ وَالْخَمْرِ، وَعَشِقِ الْبَغَايَا<sup>(١٩)</sup>.

**ثانيًا:** لَقَدْ عَزَلَ الرُّومَانِيُّونَ أَنْفُسَهُمْ دَاخِلَ قَوَاقِعِ الْفَنِّ، وَرَاحُوا يَتَنَادَوْنَ بِفِكْرَةِ الْفَنِّ الْمَجَرَّدِ مِنْ أَيْةٍ غَايَةٍ، أَوْ هَدَفٍ، سَوَى تَغْنِيِ الشَّاعِرِ بِعَوَاطِفِهِ الدَّائِيَةِ، وَهُمُومِهِ النَّفْسِيَّةِ<sup>(٢٠)</sup>، وَهُمْ بِهَذَا قَدْ كَرَسُوا وَعَمَّقُوا مِنْ مَسَاحَةِ الْفَجْوَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَامَّةِ النَّاسِ، وَهَذَا مَا يَتَنَافَى مَعَ طَبِيعَةِ النَّصُورِ الْإِسْلَامِيِّ لِلْحَيَاةِ، وَالْإِنْسَانِ، فَقَدْ حَثَّ الْإِسْلَامُ عَلَى التَّرَابُطِ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَمُشَارَكَةِ النَّاسِ أَفْرَاحَهُمْ، وَأَتْرَاحَهُمْ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ أَقْصَوْا الشَّعْرَ عَنْ وَظِيفَتِهِ فِي الْحَيَاةِ، وَحَرَفُوهُ عَنْ مَسَارِهِ الطَّبِيعِيِّ، فَلَمْ يَعُدْ شِعْرُهُمْ صَوْتًا يُعَبِّرُ عَنْ أَهْدَافِ الْمُجْتَمَعِ وَأَمَالِهِ وَطُمُوحَاتِهِ، بِالشَّكْلِ الْمَطْلُوبِ وَالْمَرْجُوعِ مِنْهُ، فَهُوَ شِعْرُ الشَّطْحَاتِ الدَّائِيَةِ وَالْانْطَوَاءِ، وَاعْتِرَالِ الْعَالَمِ.

**ثالثًا:** يُمَثِّلُ طَابِعُ الْهُرُوبِ عِنْدَ الرُّومَانِيِّينَ مَحَوْرًا هَامًّا، يَتِمَثَّلُ أَكْثَرُ مَا يَتِمَثَّلُ فِي عَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى التَّكْيِيفِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَالنَّفْسِيِّ، وَلَعَلَّ مِنْ أَهَمِّ تِلْكَ الْأَسَالِيبِ الَّتِي وَاجَهُوا بِهَا مُجْتَمَعَهُمُ: الْهُرُوبُ إِلَى الطَّبِيعَةِ، وَالْحُبِّ وَالْمَوْتِ وَالتَّشْرُدِ الدَّائِمِ، وَالتَّجَوُّلِ الْهَائِمِ، وَالْأَلَمِ الْحَادِّ وَالْيَأْسَ وَالسُّخْطَ، كَمَا رَاحُوا يَلُودُونَ بِكُلِّ الرُّمُوزِ وَالصُّوَرِ، الَّتِي تُبْعِدُهُمْ عَنْ أَيْ انْتِمَاءٍ لِلأَرْضِ وَالْمُجْتَمَعِ<sup>(٢١)</sup>، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ السَّلْبِيَّةَ الْمُفْرِطَةَ الَّتِي يُعَانِي مِنْهَا الرُّومَانِيُّ، تُخَالِفُ مَا عَلَيْهِ الْإِسْلَامُ مِنْ انْفِتَاحٍ، وَتَقَاوُلٍ، وَأَمَلٍ، وَإِذَا حَزَبَ الْمُسْلِمُ أَمْرًا مِنَ الْوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِيَّةِ، وَضِيقِ النَّفْسِ، فَإِنَّهُ لَا يَلْجَأُ إِلَّا لِلَّهِ (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى).

وَحَسْبُنَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى هَذِهِ الْعَوَاطِفِ الشَّادَّةِ وَالْغَرِيبَةِ، النَّظَرُ فِي عَنَاوِينَ دَوَائِنِهِمُ الَّتِي خَلَفُوهَا لَنَا وَمِنْهَا:

إِبْرَاهِيمُ نَاجِي: هَائِمٌ (مِنْ وَرَاءِ الْغَمَامِ)، حَسَنُ كَامِلُ الصَّيْرِفِ: يُنْشِدُ (الْأَلْحَانَ الضَّائِعَةَ)، مُصْطَفَى السَّحْرَتِي: يَسْتَشِيقُ (أَزْهَارَ الذِّكْرِ)، مُخْتَارُ الْوَكِيلِ: يَسْبُحُ فِي (الزُّورِقِ الْحَالِمِ)، وَعَبْدُ الْعَزِيزِ عَتِيقُ: الَّذِي يَسْتَعْرِقُ فِي (أَحْلَامِ النَّخِيلِ)، بَلْ وَسَيْدُ قُطْبِ الَّذِي يَرْسُو إِلَى (الشَّاطِئِ الْمَجْهُولِ)، وَمَحْمُودُ أَبُو الْوَفَا: يُرْسِلُ (أَنْفَاسًا مُحْتَرِقَةً)، وَكُلُّهَا عَنَاوِينَ تَقْطُرُ أَلَمًا وَشَكْوَى وَحَيْنًا، وَتَحْفَلُ بِنَعَمَاتِ الْهُرُوبِ وَالْغَرِيبَةِ وَالشَّائِوَمِ<sup>(٢٢)</sup>.

فَالرُّؤْيَا الْإِسْلَامِيَّةُ لِلأَدَبِ، تَرْفُضُ أَنْ يَصْطَلِعَ دَائِمًا بِالْحُزَنِ وَالْكَآبَةِ وَالْأَلَمِ، وَهِيَ حَالَةٌ مِنْ الْإِنْكَمَاشِ وَالنُّكُوصِ وَالسَّلْبِيَّةِ، لَا تُرْضَاهَا لِلْفَرْدِ الْمُسْلِمِ، فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَحْضُ عَلَى التَّقَاوُلِ وَالْأَمَلِ وَالْإِسْتِبْشَارِ، وَيَحْضُ عَلَى تَمَثُّلِ ذَلِكَ كُلِّهِ، فِي كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِ دِينِنَا وَدُنْيَانَا،

(١٨) علي محمود طه - أرواح شاردة - (ديوان)، ص ٨.

(١٩) د/سعد دعبيس - حوار مع قضايا الشعر المعاصر - ص ٩٩.

(٢٠) د/وليد قصاب - الحداثة في الشعر العربي المعاصر.. - ص ٤١-٤٢ (بتصرف).

(٢١) د/سعد دعبيس - حوار مع قضايا الشعر المعاصر - ص ٨٠ (بتصرف).

(٢٢) ينظر/ د. محمد مندور - الشعر المصري بعد شوقي - ص ٨.

فَإِنَّ "الإسلامَ لا يَرَفُضُ الحُزْنَ العَارِضَ وَلَا يُنْكِرُهُ، وَلَا يَرَفُضُ التَّعْبِيرَ عَنْهُ بِالْأَدَبِ وَغَيْرِهِ، وَلَكِنَّهُ يَرَفُضُ الاستِغراقَ فِيهِ، وَيَرَفُضُ اتِّخَاذَهُ وَسِيلَةً أَوْ سُلُوكًا فِي الْحَيَاةِ" (٢٣).

فَالْإِسْلَامُ يَرَفُضُ الْيَأْسَ وَالْقُنُوطَ، وَالْقَلَقَ وَالصَّرَاعَاتِ الدَّاخِلِيَّةَ النَّفْسِيَّةَ، فَلَا بَأْسَ مِنَ الْحُزَنِ كَعَاطِفَةِ إِنْسَانِيَّةٍ، يُعَبِّرُ الْإِنْسَانُ مِنْ خِلَالِهَا عَنْ هُمُومِهِ وَآلَامِهِ، فَالْحُزْنُ فِي الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ مَوْقِفٌ طَارِئٌ، وَحَالَةٌ عَارِضَةٌ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى فِلَسَفَةٍ عَامَّةٍ، أَوْ سُلُوكٍ حَيَاةٍ، فَهَاهُوَ سَيِّدُنَا وَنَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ يَعِيشُ حَالَةً إِنْسَانِيَّةً تَتَكَرَّرُ كُلَّ يَوْمٍ، حَالَةَ الْفَقْرِ وَالْوَدَاعِ، لِفَلَذَةِ كَبِدِهِ، وَتَكَرُّرَ فُؤَادِهِ، فَيُعَبِّرُ عَنْهَا تَعْبِيرًا إِنْسَانِيًّا رَاقِيًّا: إِنَّ الْقَلْبَ لِيَحْزَنُ، وَإِنَّ الْعَيْنَ لَتَدْمَعُ، وَإِنَّا عَلَى فِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ، وَهَاهُوَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُعَاشِ الْحَالَةَ ذَاتَهَا، فَيَزْجُرُ النَّاسَ الَّذِينَ ضَجَرُوا لِمَوْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يُصَدِّقُوا أَوْ يَسْتَوْعِبُوا هَوْلَ الصَّدَمَةِ، وَقُوَّةَ الْحَدَثِ، وَمِنْهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ، فَقَالَ مَقَالَتُهُ الْخَالِدَةُ الَّتِي دَوَّتْ عِبْرَ التَّارِيخِ "مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ"، فَالْمُسْلِمُ مُطَالِبٌ بِأَنْ يُوَاجِهَ الْمَصَائِبَ وَالْآلَامَ، بِالصَّبْرِ وَالتَّجَلُّدِ، وَعَدَمِ الْجَزَعِ وَالضَّجَرِ وَالضِّيْقِ، مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّ الْإِسْلَامَ لَا يُصَادَرُ التَّعْبِيرَ عَمَّا يَعْتَرِي النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ مِنْ عَوَاطِفٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَمَشَاعِرٍ مُتَبَايِنَةٍ، وَبَيَّانَةٍ صَوْرَةٍ كَانَتْ، وَلَكِنْ فِيهَا لَا يُغْضِبُ اللَّهَ تَعَالَى.

**رَابِعًا:** وَلَعَلَّ مِنْ أَوْضَارِ الرُّومَانِسِيَّةِ وَأَوْشَابِهَا، ذَلِكَ الْمُعْتَقَدُ (التَّأْلِيهِ) الْغَامِضُ، الَّذِي يُهَوِّنُ مِنْ شَأْنِ الْإِثْمِ الْفَرْدِيِّ، وَيَقْلِّلُ مِنْ خَطُورَتِهِ، حَيْثُ تَضَعُ الْمَسْئُولِيَّةَ كَامِلَةً عَلَى كَاهِلِ الْمُجْتَمَعِ، الَّذِي يُعَدُّ الْمَسْئُولَ الْأَوَّلَ عَنْ سُقُوطِ الْفَرْدِ وَضَيَاعِهِ وَتَشَرُّدِهِ، لِذَا فَقَدْ نَصَّبَ الشُّعْرَاءُ أَنْفُسَهُمْ مُحَامِي دِفَاعٍ عَنِ الْبَغَايَا وَالْعَاهِرَاتِ، وَاللُّصُوصِ وَالْقَتْلَةِ، مُسْقِطِينَ بِذَلِكَ كُلَّ الْقِيَمِ الْخُلُقِيَّةِ وَالْمَعَايِرِ الدِّينِيَّةِ، وَصَبَرْنَا نَقْرًا لَهُمْ مُصْطَلَحَاتٍ غَرِيبَةٍ، مِثْلَ: اللَّصُّ الشَّرِيفُ، وَالْبَغْيُ الْفَاضِلَةُ، وَالْمَوْمَسُ الطَّاهِرَةُ... وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْمِصْطَلَحَاتِ الشَّاذَّةِ (٢٤)، وَغَيْرَ خَافَ أَنْ الْإِسْلَامَ لَا يَحْمِلُ أَحَدًا وَزَرَ أَحَدٍ، مَهْمَا كَانَ، فَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى، يَقُولُ (سُبْحَانَهُ): ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (٢٥)، كَمَا أَنَّ الْإِسْلَامَ يُسَمَّى الْأَشْيَاءَ بِمُسَمِّيَاتِهَا، بِلا تَحْرِيفٍ، وَلَا تَزْوِيرٍ، فَالْصُّ هُوَ الْصُّ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْصُّ شَرِيفًا، وَلَا الْبَغْيُ فَاضِلًا، فَهَذَا الْفِكْرُ الشَّاذُّ، يَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهِ بُذُورَ الْفَسَادِ، وَالشَّجْيعِ عَلَى الْجَرِيمَةِ. وَالرُّؤْيُ الْإِسْلَامِيَّةُ لَمْ تَلِ هَذِهِ الْمَسَائِلَ، لَا تُعْفِي الْإِثْمَ مِنْ تَبِعَاتِ إِثْمِهِ، وَلَا الْمَجْرِمَ مِنْ عَوَاقِبِ جَرِيمَتِهِ، مَهْمَا كَانَتْ الظُّرُوفُ الْمُحِيطَةُ بِالْفَرْدِ، فَمَادَامَ الْمَجْرِمُ يَمْلِكُ أَهْلِيَّةَ التَّصَرُّفِ، فَالْإِسْلَامُ لَا يُسَوِّغُ ارْتِكَابَ الْجَرِيمَةِ بِأَيَّةِ صَوْرَةٍ كَانَتْ، إِلَّا أَنْ تَصِلَ هَذِهِ الظُّرُوفُ حَدَّ الْجَبْرِ وَالْإِكْرَاهِ، فَقَدْ

(٢٣) د/ عبد الباسط بدر- مذاهب الأدب الغربي "رؤية إسلامية"- ص ٤٩.

(٢٤) د/ وليد قصاب - الحداثة في الشعر العربي المعاصر..- ص ٤٢ (بتصرف).

(٢٥) سورة المدثر: الآية ٣٨.

عَالَجَ الْإِسْلَامُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ، بِحِكْمَةٍ عَالِيَةٍ، وَبِعِنَايَةٍ فَائِقَةٍ، فَقَدْ أَوْقَفَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه) حَدَّ الْقَطْعِ عَامَ الْمَجَاعَةِ (٢٦).

**خَامِسًا:** وَنَتِيجَةُ لِلْحُرِّيَةِ الْمُطْلَقَةِ، وَالْفَرَاغِ الرُّوحِيِّ، وَالْعُزْلَةِ النَّفْسِيَّةِ، فَقَدْ تَعَرَّتِ الشَّخْصِيَّةُ الرُّومَانِيَّةُ، وَظَهَرَتْ عَلَى هَيْئَتِهَا الْحَقِيقِيَّةِ، فَهِيَ شَخْصِيَّةٌ مَهْزُوزَةٌ، قَلَقَةٌ، غَيْرُ مُتَرَبِّتَةٍ، تَعِيشُ حَالَةً مِنْ فَقْدَانِ الْوَعْيِ، وَالشُّعُورِ بِعَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى التَّعَايُشِ وَالْإِنْسِجَامِ مَعَ نَفْسِهَا وَبَيْتِهَا، مِمَّا أَدَّى بِهَا فِي نِهَآيَةِ الْمَطَافِ، إِلَى أَنْ تُصَابَ بِمَا يُسَمَّى بِمَرَضِ الْعَصْرِ؛ وَهُوَ إِحْسَاسٌ حَادٌّ بِالْكَآبَةِ وَالْإِحْبَاطِ وَضِيقٍ شَدِيدٍ بِالْوَاقِعِ الَّذِي يَعِيشُهُ، فَزَاحَ هَذَا (الرُّومَانِيَّةُ) يَسْتَعِزُّ بِالمَوْتِ عَلَى الْحَيَاةِ، بَلْ وَيَرَى أَنَّ المَوْتَ هُوَ ذَلِكَ الْحُلْمُ الْجَمِيلُ، وَالْمَلَاكُ الطَّاهِرُ، الَّذِي يَسْعَى جَاهِدًا لِلْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَقَدْ حَمَلَتْ هَذِهِ اللُّوْثَةُ مِنَ الْأَفْكَارِ السَّقِيمَةِ الشَّاذَّةِ الْقَلَقَةِ، بَعْضَ الشُّعْرَاءِ عَلَى الْإِنْتِحَارِ، سَعِيًّا وَرَاءَ هَذَا الْحُلْمِ، كَأَحْمَدَ الْعَاصِي، وَمُحَمَّدَ مُنِيرَ رَمَزِي، وَإِسْمَاعِيلَ أَدْهَمَ، وَغَيْرِهِمْ، وَقَدْ تَرَكَ الْعَاصِي قَبْلَ رَحِيلِهِ رِسَالَةً كَتَبَ فِيهَا: جَبَانٌ مَنْ لَا يُرَحِّبُ بِهَذَا الْمَلَاكِ الطَّاهِرِ... إِنِّي أَسْتَعِزُّ بِالمَوْتِ الَّذِي هُوَ كَالرَّائِحَةِ الرُّكْبِيَّةِ عِنْدِي (٢٧).

وَلَا يَخْفَى أَنَّ كُلَّ مَا سَبَقَ مُخَالَفٌ لِرُوحِ الْإِسْلَامِ، وَمَبَادِيئِهِ السَّمْحَةِ، فَالْحُرِّيَّةُ فِي الْإِسْلَامِ مَكْفُولَةٌ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِ، يُمَارِسُهَا بِدُونِ أَيَّةِ ضَغُوطٍ، وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ حُرِّيَّةً مُطْلَقَةً، وَإِنَّمَا هِيَ مُقَيَّدَةٌ بِقِيُودِ الْأَخْلَاقِ، وَالْقِيَمِ، وَالتَّصَوُّرَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ، كَمَا أَنَّ الْإِسْلَامَ يَسُدُّ كُلَّ الثَّغَرَاتِ الرُّوحِيَّةِ، مِنْ خِلَالِ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ بِالْخَالِقِ (عَزَّ وَجَلَّ)، أَمَّا مَا نَتَجَّ عَنْ ذَلِكَ الْفَرَاغِ الرُّوحِيِّ، وَالْحُرِّيَّةِ اللَّامَحْدُودَةِ مِنَ شُعُورِ الْيَأْسِ، وَالْإِحْبَاطِ، وَالْقَلَقِ...، فَكُلُّ ذَلِكَ مُسَوِّغٌ فِي حِمَاةِ هَذِهِ الظُّرُوفِ الْقَاسِيَةِ الَّتِي تَفُوقُ قُدْرَاتِ الْإِنْسَانِ، غَيْرِ الْمُحَصَّنِ بِقُوَّةِ الْإِيمَانِ، وَالْعَقِيدَةِ السَّلِيمَةِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّ الْإِسْلَامَ لَا يَقْرُّ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، مَا يَنْتُجُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ حَالَاتِ الْإِنْتِحَارِ، وَقَتْلِ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَالَّتِي يَعْتَبَرُهَا "الرُّومَانِيَّةُ" جُزْءًا مِنَ الْحُرِّيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ، يَتَصَرَّفُ بِنَفْسِهِ، وَيَفْعَلُ بِهَا مَا يَشَاءُ.

(٢٦) ينظر/ د. عبد الباسط بدر- مذاهب الأدب الغربي "رؤية إسلامية"- ص ٥٠-٥١ (بتصرف).

(٢٧) ينظر/ د. وليد قصاب - الحداثة في الشعر العربي المعاصر- ص ٣٨.